

فكرة تجريدية الشطحات الصوفية عند السراج الطوسي

(دراسة وصفية تحليلية في كتاب اللمع)

Fahad Aminudin
UNIDA Gontor
fahad.me88@gmail.com

تمهيد

لا شك أنّ التصوف هو طريقة حياة التي كادت تصعب تعبيرها إلى الغير تفصيلياً، لأن المظاهر فيه من الأحوال الوجدانية التي يصعب فهمها. ومنها هي الأقوال المستغربة التي ألقاها الصوفية عند شدة وجده بالله، و سماها بالشطحات. وقد أنكرها بعضهم مثل هذه الأقوال، وبعضهم قد اعتقدوا في قائلها الكفر. وليس الكلام عن الشطحات أمراً مبكراً عند الصوفية، فأتى أبو نصر السراج الطوسي (توفي ٣٧٨ هـ) يحمل نظرية الشطح وفتحها جاذبة يفهمها المريدون السالكون، حتى يكون البيان الذي عرضه أولى صورة من البيانات لمثل هذا الشطح. و بملاحظة خاصة أنه وضع تفسيراته في كتابه "اللمع" نحو الأقوال الشطحية من الصوفية ويردّ على من أنكر بمثل هذه الكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح مستقيم. ومن هذا البحث استنتج الباحث أن الشطحات عند السراج الطوسي هي عبارة استعملها الصوفية في تصوير و في وصف وجد فاض بقوّته و هاج بشدّة غليانه و غلبته. و رأى الباحث وجه الاتفاق في تعريف الوجد عند الصوفية بأنه سرّ الله تعالى للمؤمنين المتيقنين الذي جاء فجأةً دون أن يحسّ في قلوب الصوفية. و أنّ فهم تجربة الوجد فاض بقوّته و هاج

بشدّة غليانه و غلبته إنما هو المعنى المفهوم الأساسي الذي أكّده السراج الطوسي لفهم مثل هذه الشطحات.

الكلمات المفتاحية: السراج الطوسي, الشطحات, اللمع

المقدمة

بوجه عام أنّ الأهداف من التصوف التي يتأملها الإنسان في السلوك إنما هو تحقيق كماله الأخلاقي ويهدف إلى تصفية النفس، وعرفانه بالحقيقة، وسعاداته الروحية، هذه هي فلسفة حياة التي سماها دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني. وهي أيضاً أحوال لا يمكن وصفها و يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة العادية، لأنها أحوال وجدانية.¹

فإنّ الغاية التي هي أمل الصوفي إلى وصولها هي الفناء، وما يتبعه من البقاء في الله، وتجربة البقاء في الله هي فضل خالص معطاة من الله، وأحيانا عند فئائه قام الصوفي سكرانا يؤدي إلى حال الوجد (*ectasy*)، وفي حال وجده يمكن أن يغيب الصوفي عن شعوره وعبر عبارة بالألفاظ المستعربة لا يفهمها السامع.² هذه هي الأحوال الوجدانية التي يصعب وصفها أو التعبير عنها الشطحات، وهي عبارة عن كلمات يظهر بها اللسان بعد أن يصل قائلها إلى مرحلة يغيب بها عن شعوره. فظهر لدي الباحث بأنّ الفناء إنما هي مظهر لظاهرة الشطح.

١ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٩)، ص. ٣-٤

2. Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, (New Delhi: Yoda Press, 1975), p. 178

إنّ هذه الكلمة "الشطحية" لم ترد في القرآن، ولا يوجد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا في زمن السلف الصالح، إنها تظهر كثيرًا على ألسنة بعض المتصوفة السالكين.³ ويرى الباحث مهما لم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم لكن المظاهر مأخوذة من تجربة النبي صلى الله عليه وسلم كحديثه القدسي، بأن اللفظ من النبي والمعني من الله.

ويري الصوفية أنّ كلّ واحد منهم ينطق بهذه الألفاظ الشطحية بكل ما وجد ويصدق عن حاله، وأراد أن يعبر ما ورد على سره بلفظه، لأنهم لا يرون حالاً أعلى من حالهم. حتى تنتهي الطرق والأحوال والأماكن إلى أعلى النهايات وغاية الغايات.⁴ وعند هذه الغاية تتحرك أسرار الواصلين، حتى إذا قوي وجدهم عبّروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغربها وينكرها السامع. لأن لكل أحد تعريف عنده فعرفوا هذه الأقوال بقدر ما حاولوا فهم هذه الأقوال على أساسها فأخطئوا في فهمها ومعرفة مقاصدها، وفي حين لا يستغربها الصوفية الذين يعرفون حقيقة هذه التجربة الأقوال وما ترمي إليها.⁵

وليس الكلام عن الشطحات أمراً مبكراً عند الصوفية، فقد ظهر الكلام في الشطحات الصوفية من أوائل القرن الثالث، مثل ما تقع في مسائل أبي يزيد البسطامي (توفي ٢٦١ هـ) بقوله المشهور "سُبْحَانِي سُبْحَانِي وَسُبُّوحٌ"،⁶ ثم الشبلي (توفي ٣٣٤ هـ) بقوله "لو عرضتُ ذلِّي علي ذلّ اليهود والنصارى لكان

٣. صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص. ١٩٣-١٩٤.

٤. دكتور محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، (بيروت: دار الفكر الجامعي، ١٩٨٣)، ص. ٣٢٩، أنظر أيضاً أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، تحقيق عماد زكري الباردي، (القاهرة: المكتبة التوفيقية)، ص. ٣٧٨.

٥. أمل فتح الله زركشي، نظرية الفناء عند أبي يزيد البسطامي، (فونوروكو: مطبعة دار السلام، ٢٠٠٠)، ص. ١٤٦.

٦. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩١.

ذلي أذل من ذلهم"⁷ وحكى أيضا عن محمد بن موسى المعروف بالواسطي (المتوفى ٣٣١ هـ) أنه قال: "من ذكر افترى، ومن صبر اجترى، ومن شكر انبرى"⁸. هذه الأمثال ظاهرها مستشنع.

ومن الأمثال السابقة،⁹ أنهم لا يدركون بأنّ الألفاظ التي عبّروا عند وجدهم سمي بالشطحة، ولم يمتلكو تعريف الشطح بوجه خاص عما عبّروا عند وجدهم. فاستنبط الباحث بأن تعريف الشطح تظهر بعد وفاتهم، فأتى أبو نصر السراج الطوسي (توفي ٣٧٨ هـ) بكتابه اللمع يبيّن نظرية الشطح في صفحات خاصة.

وقد أشار إلينا Carl W. Ernst أن السراج الطوسي فتح نظرية الشطح الجاذبة مع الأحوال التي بها يفهمها المريدون السالكون. والبيان الذي عرضه السراج الطوسي يكون أولى صورة من البيانات مثل هذا الشطح، وعلى هذا الأساس فيهمّ للدارسين أن يشرحها على صورة عميقة.¹⁰

كما يقول أيضا أحد المستشرقين أربري A.J. Arberry كتاب اللمع هو رسالة عامة عن تصوف قديم العهد ومشهور، حيث فيه عديد من القيم الأساسية. وكتب المؤلف بملاحظة خاصة على الباحث عن الشطحات الصوفية التي تكون صعبة في عصره. ويقول أيضا فإن المؤلف يعطى صورة ناطقة يبيّن موضوعات كثيرة في التصوف، وإنه قد وضع في صفحات خاصة تبين عن

٧. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩٦

٨. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٤١٧

٩. منهم من ينكر بهذه الأقوال الشطحية كابن سالم، وعلام الخليل، وأبو عبد الله الزبيرى، وعلي بن عيسى، هم الذين وجد الباحث ما ورد

في اللمع. حقق إلى اللمع للسراج الطوسي، ص. ٣٧٧-٤٢٤

10. Carl W. Ernst, *Word of Ecstasy in Sufism*, (Malaysia: S. Abdul Majid & Co, 1994), p. 11

تفسير الشطحات الصوفية ويردّ على من أنكر بمثل هذه الكلمات التي
ظاھرھا مستشنع وباطنھا صحیح مستقیم.¹¹

شخصية أبي نصر السراج الطوسي

هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (توفي ٣٧٨ هـ)، ونسبه
عبد الله علي بن يحيى، ولقبه طاووس الفقراء، لأنه يتكلم كثيرا عن الفقر،
والطاووس هو الطائر المزهو بنفسه، كبير الحجم ولكنه صغير الرأس، والعالم
الذي يشبه به قد يقول الكثير من العلم، وقد يخطئ أيضا ويجانبه الصواب،
وكان إبليس طاووس الملائكة، وقيل من الجنيد أنه طاووس العلماء لأنه كان
عالما كبيرا وصوفيا عتيدا ولكنه كثيرا منا شهدوا عليه بالكفر والزندقة.¹²

والطوسي هو اسم من إحدى المدن في الخراسان التي نسبت إلى مدينة
طوس، وهي مدينة قديمة في الخراسان بإيران، التي أصبحت أكبر مركز من
مراكز التصوف في العالم الإسلامي.¹³

كان السراج الطوسي مريدا لأبي محمد المرتعش، أنه تجول في أنحاء
العالم الإسلامي، واجتمع بأعلام التصوف في عصره.¹⁴

يقول عنه العلامة السخاوي: "كان السراج على طريق أهل
السنة".¹⁵ صوّر في لمعه بأحسن تصويرها مدعماً لها بالأدلة القرآنية والنبوية

11. A.J. Arberry, *Sufism an Account of the Mystics of Islam...*, p. 67

12. دكتور عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦)، الطبعة الخامسة، ص. ٨٥١.

13. كانت خراسان ذات مركز هام في الخلافة الإسلامية، ودخلت خراسان ضمن مملكة الإسلام في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان
رضي الله عنه، حين فتحها عبد الله بن عامر بن كريز. علي أن ابن قتيبة يرى أن بلاد خراسان قد ابتدأ دخولها الإسلام في عهد
الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه على يد الأحنف بن قيس سنة ثمان عشرة، وفي هذه المدينة ولد السراج الطوسي. أبو عبد الرحمن

السلمي، طبقات الصوفية، بتحقيق نور الدين شربية، (سوريا: دار الكتاب النفيس، ١٩٨٦)، ص. ١٦-١٤.

14. دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، كشف المحجوب للهجويري دراسته وترجمته، (مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٤)،

ص. ١٥٣.

والعملية والذوقية، عمدًا إلى أدق وأنبل ما في كتابه.¹⁶ فحملة إلى علامت
تعاليم التصوف على طريق السنة. ومعروف بعد عرض مذهبه وهو من أهل
السنة.¹⁷

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود وهو الذي يقوم بتحقيق هذا
الكتاب، بأنه وضع المنهج العلمي في كتابة كتابه "اللمع"، نشر الأصول
الصوفية القديمة، وتلك الأصول التي أضاعت أفق الحياة الإسلامية في أزهي
عصورها، وصنعت الأخلاق الإسلامية في أنبل عهودها، وصاغت لأمتنا في
وثبتها الأولى، فلسفتها الروحية، وآفاقها المثالية، وخطوطها العريضة، في
المعرفة والتربية، ومناهجها في السلوك والمجاهدة، ومعارضها في الحب
والمناجاة، من قربى إلى الله، ووسيلة إلى هداه ورضاه.¹⁸

استعمل السراج الطوسي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في
توضيح آرائه، وكتب أيضا لمعه بنقل أقوال أئمة الصوفية السونيين، نستنبط
أنه سلك منهج السلفي في كتابة اللمع فهو بتقديم النقل على العقل.

آراء العلماء في الشطحات الصوفية

كان الجرجاني عرّف بعبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى
تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهو زلات المحققين، فإنه

١٥. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ١٢

١٦. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ١١

١٧. عدنان حقي، الصوفية والتصوف، (دمشق: الطبعة الثانية، ١٩٩٢)، ص. ٧٩

١٨. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣

دعوى حق يفصح بها العارف لكن من غير إذن الهي بطريق يشعر
بالنباهة.¹⁹

وعرّف أيضا ابن عربي (المتوفى ٦٣٨ هـ) بكلمة صادقة تصدر من
رعونة نفس، ويستمرّ قوله بأن الشطح كلمة دعوى بحق تفصح عن مرتبته
التي أعطاه الله من المكانة عنده أفصح بها عن غير أمر إلهي لكن على
طريق الفخر بالراء، فإذا أمر بها فإنه يفصح بها تعريفا عن أمر إلهي لا
يقصد بذلك الفخر.²⁰

بهذين التعريفين يرى الباحث بأن الصوفيين لا يشتنعون الأقوال
السطحية، لكن الباحث وجدهم يرون في أن الخطأ الوحيد فيها هو أن
القائمين بالأقوال السطحية ينطقون بها من غير إذن إلهي.²¹ فطبعاً أن كل
الصوفي له تعريف خاص عنده، بل كان الصوفيون المتأخرون يتأثرون كثيراً
من الصوفيين الأولين مثل ما وجد الباحث وجه المساواة من تعريف ابن
عربي و الجرجاني.

فينقسم الشطح إلى نوعين كما قسمه الدكتور أمل فتح الله زركشي
في إعدادة "نظرية الفناء عند أبي يزيد البسطامي"، فالنوع الأول: الشطحات
التي تصدر عن الصوفي هو في حالة الوجد والغيبة. والنوع الثاني: الشطحات
التي تصدر عنه بعد الخروج من الحالة.²²

النوع الأول، فينطبق على الصوفي هذا التعريف لوجود رائحة دعوى
وزلة وإفصاح، فلا يؤخذ عليها الصوفي ولا تنكر، كما قال ابن تيمية أن

١٩. علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، (مصر: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦)، ص. ٥٥-٥٦

٢٠. محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، قدمه نواف الجراح، المجلد الرابع، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٧)، ص. ١٩

٢١. الدكتور عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٨)، الطبعة الثالثة، ص. ٢٣

٢٢. أمل فتح الله زركشي، نظرية الفناء عند أبي يزيد البسطامي، (فونوروكو: مطبعة دار السلام، ٢٠٠٠)، ص. ١٥٥

الواجد من هؤلاء إذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه.²³ وزاد عبد القادر الجيلاني: لا يحكم إلا على ما يلفظ به الصوفي في حالة الصحو، وأما الغيبة فلا يقام عليها حكم.²⁴

والشطحات من النوع الثاني، التي تصدر عنه بعد الخروج من الحالة فلا ينطبق عليه بتعريف الجرجاني لأنه لا يوجد فيه رائحة دعوى ولا زلة ولا إفصاح عن سر بدون إذن الهي.

وقد حاول الدكتور عبد الرحمن بدوي في تحليل العناصر الضرورية التي يقوم بها وجود ظاهرة الشطح إلى خمسة، هي: أولا، شدة الوجد.²⁵ وثانيا، أن تكون التجربة تجربة اتحاد.²⁶ وثالثا، أن يكون الصوفي في حالة سكر.²⁷ رابعا، أن يسمع في داخل نفسه هاتفا إلهيا يدعوه إلي الاتحاد.²⁸ وخامسا، أن يتم هذه كله والصوفي في حال من عدم الشعور.²⁹

٢٣. ابن تيمية، الصوفية والفقراء، قدم لها الدكتور محمد جميل غازي، (دار المدني، دون السنة)، ص. ١٧

٢٤. أبو الوفاء الغنيمي الفتازاني، مدخل إلي التصوف...، ص. ١٢٢

٢٥. الوجد هو ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل. أبو بكر محمد الكلابادي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق محمود أمين النواوي، (مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٢٩، الطبعة الأولى)، ص. ١٣٤

٢٦. وضع الاتحاد في العنصر الثاني لأنه يقع بعد وجد عنيف، والوجد يكون بداية الاتحاد. أن الاتحاد هو شهود وجود واحد مطلق من حيث أن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد معدومة في نفسها، لا من حيث إن لها سوى الله وجودا خاصا يصير متحدا بالحق. الدكتور عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص. ١٤-١٥

٢٧. أن السكر هو تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، وهو أن لا يميز بين مرافقه وعدوه، لأن صاحب السكر يشعر بالاتحاد، فإن غايات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤله ويلذنه. أبو بكر محمد الكلابادي، المرجع السابق، ص. ١٣٨

٢٨. كما رأى الدكتور بدوي بأن باعث الوجد هي مناجاة بسر، وهذه محكمة بالشوق إلى الاتحاد، لأن الشوق ميل إلى المحبة ويقدر المحبة يظهر الشوق في المعنى أن الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب. القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف تحقيق معروف مصطفى زريق، (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠١)، ص. ٣٢٩، وانظر أيضا كتاب التعريفات للجرجاني، ص. ٥٦

٢٩. فقد بحث عن الوجد والاتحاد والسكر، وتتم هذه كلها في حال من عدم الشعور. لأن هذه الثلاثة لا يتحقق إلى الاتحاد إلا إذا كان الصوفي في حال من عدم الشعور. فمن هنا كان عدم الشعور عنصرا قويا في تحديد الأحوال اللازمة للشطح. الدكتور عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص. ١٠-٢٢

فكرة الشطحات الصوفية عند السراج الطوسي

أنّ السراج الطوسي يوضح معنى الشطح في كتابه لغَةً واصطلاحاً، وأوّل ما يعرض الباحث هنا المعنى اللغوي. يقول السراج الطوسي أنّ الشطح في لغة العرب مأخوذة من الحركة، يقال: شَطَحَ يَشْطَحُ إذا تحرك، ويقال للبيت الذي يجوزون فيه الدقيق يسمى "المشطاح"³⁰.

وسمي ذلك البيت بالمشطاح لكثرة ما يحركون فيه الدقيق فوق ذلك الموضع الذي ينخلون به، ويمكن هذا الدقيق يفيض من جانبه لكثرة الحركة في ذلك البيت، فالشطح لفظة مأخوذة من الحركة.³¹ وفي مكان آخر، أعطى السراج الطوسي مثالا آخر غير البيت لنخل الدقيق يعني بحركة الماء الكثير الذي جرى في نهر ضيقّ فيفيض من حافتيه، ويقال شطح الماء في النهر.³²

أما الشطح في معناه الاصطلاحي الذي عرّفه السراج الطوسي هو عبارة مستعربة في وصف وجد فاض بقوّته، وهاجّ بشدّة غليانه وغلبته.³³ وزاد تعريفه في مكان آخر بكلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه، مقرون بالدعوى.³⁴ ثمّ وضع الدكتور بدوي هذا التعريف في كتابه بأن الشطح هو تعبير عما تشعر به النفس حينما تصبح لأول مرة في حضرة الألوهية، فتدرك أنّ الله هي وهي هو، ويقوم إذن على عتبة الاتحاد.³⁵

٣٠. أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٧٧.

٣١. أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٧٧.

٣٢. أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٧٨.

٣٣. أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٧٧.

٣٤. أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٤٧.

٣٥. الدكتور عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص. ١٠.

كما يقول صاحب الطبقات أبي عبد الرحمن السلمى (المتوفى ٤١٢ هـ)، بأن الشطح للخراسانيين، لأنهم يتكلمون عن أحوالهم و عن الحقائق.³⁶ بالمعنى أنه يوافق بتعريف السراج الطوسى و تعريف السراج عن الشطح يأثر تعريف السلمى، لذا قال السلمى أن الشطح للخراسانيين. من هنا بالاعتماد هذين التعريفين لغويا واصطلاحيا من الشطح، يظهر للباحث بأن السراج الطوسى يمثل الشطح بالبيت الذي فيه ينخل الدقيق، ثم يفيض من موضعه، أنه أراد أن يصوّر حركة أسرار الواجدين حينما قوي وجدهم وفاض بقوة فعبروا عن وجدهم بعبارة يستغرب سامعيها. لأن صاحب الوجد إذا اشتدّ وجدّه فلا يقدر على وصف ما وجدّه، فيتحدث على لسان الحق، لأنه صار والحق شيئا واحدا.³⁷ إذن يرى الباحث بأن الشطح مظهر لوصف وجد.

الوجد والسكر عند السراج الطوسى

الوجد كما يقول السراج هو مصادفة القلوب لصفاء ذكر كان عنه مفقودا.³⁸ وذكر عن الجنيد أنه قال: "كما أظن أن الوجد هو المصادفة ويترجم ذلك بالمفاجأة وبقوله عزّ وجلّ: **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا**،³⁹ يعني صادفوا، وقال: **وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ**

٣٦. أبو عبد الرحمن السلمى، طبقات الصوفيين، ص. ٣٧.

٣٧. الدكتور عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفيين، ص. ١٠.

٣٨. السراج الطوسى، اللع في تاريخ التصوف، ص. ٣٤٣.

٣٩. سورة الكهف: ٤٩.

اللَّهِ،⁴⁰ أي تصادفوا وقال: حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا،⁴¹ يعني لم يصادفه.

ولقد مثل صاحب الفتوحات المكية ابن عربي (المتوفي ٦٣٨ هـ) بأن مظهر الوجد في الأحوال كمجيئ الوحي إلى الأنبياء فجأةً. فأوضح ويستمر قوله أن الوجد عبارة عما يصادف القلب من الأحوال المنفية له عن شهوده وشهود الحاضرين.⁴² المفهوم الأساسي منه المصادفة أو المفاجأة.

فاستنتج الباحث بتعريف السراج الطوسي تأكيداً برأيهما أن الوجد هو سرّ الله تعالى للمؤمنين المتيقنين الذي جاء فجأةً في قلوب الصوفيين فانياً ويشعر بالحضور الإلهي ومكاشفات من الحق، وإذا لم يكن الصوفي عند ذلك الحضور الإلهي ومكاشفات من الحق الذي يفنيه، فلم يكن واجداً. وقسم السراج صاحب الوجد إلى طبقتين واجدٌ ومتواجدٌ.⁴³ ولا شك لدي الباحث بأن الشطح يحتاج إلى شدة الوجد.

أما السكر، يقول السراج الطوسي بأن معناه قريب من معنى الغيبة، وهو غيبة القلب عن مشاهدة الخلق بحضوره ومشاهدته للحق بلا تغيير ظاهر العبد، وزاد بعد ذلك أن السكر أقوى وأتم وأقهر من الغيبة.⁴⁴ فغيابه يؤدي إلى الشطح في حال الفناء، واختفائه يجعل الإنسان هائماً سكراناً.⁴⁵

٤٠. سورة البقرة: ١١٠.

٤١. سورة النور: ٣٩.

٤٢. محيي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية...، ص. ١٨٩.

٤٣. الواجد هو الذي يقوم بالوجد حقيقياً، أما المتواجد هو الذي يكتسب العبد بالاستدعاء للوجد والسكر، السراج الطوسي، اللمع في

تاريخ التصوف، ص. ٣١١-٣١٢.

٤٤. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٤١.

٤٥. الدكتور محمدي محمد ابراهيم، التصوف السني...، ص. ١٨١.

فهذا التعريف يوافق القشيري (توفي ٤٦٥ هـ) بقوله السكر هو غيبة بوارد قوي.⁴⁶ وربما يستطيع صاحب السكر أن يكون أشدّ غيبة من صاحب الغيبة، لأن السكر ليس مصدره من الطبع الانساني ولا يتغير الطبع والحواس عند وقوعه، هذا ما يقوله السراج، وعكس ذلك الغيبة فمصدرها من الطبع الانساني وتتغير الطبع والحواس عند وقوعه.⁴⁷

من هنا نرى وجه الاتفاق بين السراج الطوسي والقشيري في أن السكر غيبة، بل يستطيع الساكر أشدّ غيبة من صاحب الغيبة، وعند هذه الغيبة لا يقدر الساكر على تمييز الأشياء. فيبان السراج الطوسي أرجح عند الباحث من بيان القشيري، لأنه ذو نفوذ للقشيري.

تفسير السراج الطوسي من شطحات الصوفية

أ. تفسير شطحات أبي يزيد البسطامي (المتوفى ٢٦١ هـ)

و من أعظم شطحاته قوله المشهور "سُبْحَانِي سُبْحَانِي سُبُوح".⁴⁸

وهذا القول الذي كان يكفره ابن سالم بالبصرة. قال السراج الطوسي: سمعتُ ابن سالم يقول في مجلسه يوماً: فرعون لم يقل ما قال أبو يزيد رحمه الله، لأن فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، والربّ يسمّى به المخلوق، فيقال: فلان ربُّ دارٍ وربُّ مالٍ، وربُّ بيتٍ، وقال أبو يزيد رحمه الله: سُبْحَانِي سُبْحَانِي اسم من أسماء الله تعالى الذي لا يجوز أن يسمّى به غير الله تعالى.⁴⁹

٤٦. أبي القاسم عبد الكريم ابن هوزان القشيريّ النيسابوري، الرسالة القشيرية...، ص. ٧١

٤٧. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٤٢

٤٨. محمد فوق حجاج، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٠

٤٩. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩١

ثم ردّ السراج تكفير ابن سالم في ذلك، يقول بأن أبا يزيد يسبح
الله تعالى حينئذ ويصفه بما وصف به نفسه. فربما هذا الكلام له مقدمة في
قوله "سبحاني سبحاني"،⁵⁰ كما لو سمعنا رجلاً يقول: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ، فنتفكر أن هذا الرجل يقرأ القرآن، فطبعاً له مقدمة يعني: وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ □

بل أن أبا يزيد نفسه قد شرح مقصوده من قوله "سبحاني"، فيقول:
"قلت يوماً سبحان الله فناداني الخالق في سرّي: هل في عيب تنزهني عنه؟
قلت: لا يا رب. قال: فنفسك نزه عن ارتكاب الرذائل، فأقبلت على نفسي
بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل وتحلت بالفضائل، فصرتُ أقول: سبحاني
ما أعظم شأنني من باب التحديث بالنعمة".⁵²

وبهذا يرى الباحث بأن الشرح الذي ألقاه السراج، يريد أن يؤكد
بأن الكلام من أبي يزيد ليس كاعتقاد فرعون بقوله "أنا ربُّكم الأعلى"
يعتقد أنه هو المتفرد في العبادة والربوبية، أما أبو يزيد لا يعتقد ذلك وإنما
يسبح الله تعالى ويصفه بما وصف به نفسه وله مقدمة في قوله ذلك.⁵³
وعبارة أخرى تأتي من أبي يزيد التي كانت مستغربة للسامع هي:
"أشرفتُ على ميدان اللبسية، فما زلتُ أطير فيه عشر سنين، حتى صرتُ من

٥٠. السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٩١

٥١. سورة الأنبياء: ٢٥

٥٢. محمد فوق حجاج، المجلد الثاني، شخصيات صوفية...، ص. ٣٠

53. Carl W. Ernst, *Words of Ecstasy in Sufism...*, p. 51

ليس في ليس بليس، ثم أشرفتُ علي التضييع، وهو ميدان التوحيد، فلم أزل أظير بليس في التضييع، حتى ضعتُ في الضياع ضياعاً، وضعتُ فضعتُ عن التضييع بليس في ليس في ضياعه التضييع، ثم أشرفتُ على التوحيد في غيوبة الخلق عن العارف، وغيوبة العارف عن الخلق".⁵⁴

فهذا القول يدل على أول وقوعه في حقيقة الفناء والذهاب⁵⁵ عن كل ما يرى ولا يرى. ودليل ذلك في قوله "ليس بليس"، هو ذهاب ذلك كله عنه وذهابه عن ذهابه. ومعنى ليس بليس، أي ليس شيئ يحس ولا يوجد، قد طمس على الرسوم، وقُطعت أسماء، وغابت المحاضر، وبلعت الاشياء عن المشاهدة، فليس شيئ يوحد، ولا يحس بشيء يفقد، ولا اسم لشيء يعهد، ذهب ذلك كله بكل الذهاب عنه، وهو الذي يسميه قوم الفناء، ثم غاب الفناء في الفناء، فضاع في فناءه، فهو التضييع الذي كان في ليس به، وبه في ليس.⁵⁶

يرى السهلجي من هذا القول وقال: "وتلك إشارة إلى تنزيه الرجال بعد ادراك الكمال ونهاية الجمال وغاية الجلال والقرار على حال ليس ورائها حال".⁵⁷ وذلك حقيقة فقد كل شيء، فقد النفس بعد ذلك، فقد الفقد في الفقد، والارتماس في الانطماس، والذهاب عن الذهاب، وهذا شيء ليس له أمد ولا وقت يعهد.⁵⁸ ومعنى قوله: "ليس بليس في ليس" فإنه يشير إلى

٥٤. السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٨٨

٥٥. الذهاب هو غيبة القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة المحبوب، الفتوحات المكية...، ص. ٢٢. وزاد السراج بأن الذهاب بمعنى الغيبة

وانما أتم من الغيبة، السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوف...، ص. ٣٤٨

٥٦. السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٨٩

٥٧. الدكتور مجدي محمد ابراهيم، التصوف السني...، ص. ٣١٤

٥٨. السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٨٩

ليسته فيما هو فيه، لأن الأشياء وجودها كلها خيال عند الله تعالى، مهما كان وجوده ظاهراً، لكن حقائقها عدم غير موجود.⁵⁹

من هذا القول معتمدا على قول الجنيد بأن هذا كله وما جانسه داخل في علم الشواهد على غيبة عن استدراك الشاهد، وفيها معان من الفناء بتغييب الفناء عن الفناء.⁶⁰ فتكون الغيبة الحاصلة من جذوة الفناء، وموانعة للرجل عن استدراك شواهد الخلق ومناظرة الوجود، بل أن الجنيد يضع هذه الدرجة خطوة أولى وليس من علامات النهاية كما ظن واهماً السهلجي.⁶¹

وتكلم أيضا في عمل أبي يزيد غير السراج الطوسي، الصوفي الشهير المعروف بحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ)، وقبل أن يفسر عن مجاهدته أنه يقول بأن الله أعلم بهذا العلم،⁶² فهو يسعى بتفسير قول أبي يزيد مهما كان أنه لا يوافق بإلقاء هذه الأقوال المستغربة أمام السامعين من العوام، وهو يقوم بالاهتمام إلى دفع السامع من العوام حينما سمعوا هذه الأقوال المستغربة، والخطأ الوحيد لقائل هذا الكلمة الشطحة عنده إنما هو النطق أمام الناس العامة مع أنهم من العوام لهذا العلم.⁶³

٥٩. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٩١

٦٠. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوفين، ص. ٣٨٩

٦١. الدكتور مجدي محمد ابراهيم، التصوف السني...، ص. ٣١٤

٦٢. قال أبو يزيد: "مكثت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين كنت أجلو مرآة قلبي، وستة أنظر فيما بينهما فإذا في وسطي زنار فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه فكشفت لي فرأيت الخلق موق فكترت عليهم أربع تطبيرات". الإمام أبي حامد

الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين في مجموعة رسائل الإمام الغزالي، (لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦)، ص. ٩٧

63. Carl W. Ernst, *Words of Ecstasy in Sufism...*, p. 14

ب. تفسير شطحات أبي بكر الشبلي (المتوفى ٣٣٤ هـ)

اسمه أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي.⁶⁴ قال السراج الطوسي: سمعت أبا عبد الله بن جابان يقول: دخلتُ على الشبلي رحمه الله في سنة القحط، فلما قمت عليه أن أخرج من عنده، فكان يقول لي ولن معي، إلى أن خرجنا من الدار: "مَرّوا أنا معكم حيث ما كنتم، أنتم في رعايتي وفي كلائتي".⁶⁵

بيّن السراج بأنه يريد بقوله ذلك في معنى أن الله تعالى معكم حيث ما كنتم، وهو يرعاكم ويكلؤكم، وأنتم في رعايته وكلاءته، هذا كلام الواجد فيما غلب على قلبه من تجريح التوحيد وحقيقة التفريد، فإذا قال "أنا"، أنه يعبر عن وجهه ويترجم عن الحال الذي قد استولى على سرّه، يشير بذلك إلى ما غلب من حقيقة صفة مشاهدته قرب سيده.⁶⁶

ويقول روزبهان البقلي من هذا الكلام كان الشبلي يقصد بذلك الهمة العالية التي تتوفر لحمايته من يصدق الشيخ، ومن خلال توحيده بالله يستطيع أن يحميمهم أينما كانوا، لأنه يصرف جميع أموره مستعينا بالله.⁶⁷ وكان الشبلي يشير إلى قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ

٦٤. هو أبو بكر ويقال اسمه جعفر بن يونس، خراساني الأصل بغدادى المنشأ والمولد والشبلي ممن صحبوا الجنيد، ومن في عصره من المشايخ، وصار أُوحد وقته حالا وعلماء، وكان عالما فقيها على مذهب مالك. أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفيين، ص. ٣٣٧

٦٥. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩٥

٦٦. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩٦

67. Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*..., p. 79

مَعَهُمْ آيَنَ مَا كَانُوا^ط ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{٦٨}.

فنطق الشبلي بما وجد من ذلك بقوله: "لو عرضت ذلّي على ذلّ اليهود والنصارى لكان ذلّي أذلّ من ذلّهم". كما قال يحيى بن معاذ الرازي: "العارف إذا ذكر ربه افتخر، وإذا ذكر نفسه افتقر واحتقر".⁶⁹

عبارة أخرى التي عبرها الشبلي هي: "أمر الله تعالى الأرض أن تبتلعني إن كان في فضل منذ شهرٍ أو شهرين لذكر جبريل و ميكائيل، عليهما السلام". وسمع السراج الطوسي من الحصري يقول: "كان الشبلي رحمه الله يقول لي: إن مرّ بمخاطرك ذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام أشركت".⁷⁰ فمن سمع هذا القول بدأ يقول في ذهنه "إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل على نفسه، فكيف يجوز لقائل أن يقول مثل ذلك".

فبدأ السراج يجب بأن كلام الواجدين بذكر الله تعالى يكون مجملاً وتفصيلاً، فيكون الكلام المجمل له مقدمات لم يسمعها السامع فيكون الكلام المجمل غير مشروح، هذا متفرق بالكلام المفصل إنما يكون مشروحاً مبيناً محترزاً، والكلام الذي حكي عن الشبلي رحمه الله هو كلام مجمل له مقدمات، فإذا سمع المستمع مقدماته لم يشتنع عليه ما قاله الشبلي، وإذا لم يسمع بالمقدمات التي قد تقدمت قبل هذا الكلام، فيشتنع عليه وينكر قلبه ذلك.

٦٨. سورة المجادلة: ٧

٦٩. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩١-٣٩٢

٧٠. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩٧

وبين السراج المقدمات التي قد تقدمت قبل هذا الكلام، يعني في حكاية حكاها أبو محمد النساج في رجل سأل الشبلي عن صورة جبريل عليه السلام. فأجاب الشبلي: "سمعتُ في الرواية: أن جبريل عليه السلام سبعمئة لغة وسبعمئة جناح: منها جناحان إذا نشر واحداً غطى به المشرق، وإذا نشر الآخر غطى به المغرب، فأيش تسأل عن ملك تغيب الدنيا بين جناحيه رآه على صورته قد سد الأفق؟" فقال الشبلي رحمه الله للرجل: نعم.⁷¹

والصواب من هذه الحكاية أن الشبلي يقول: "أيها السائل إنك سألتني عن جبريل عليه السلام وأحواله، فأمر الله تعالى الأرض أن تبتلعني إن كان فيّ فضل، منذ شهر ولا شهرين لذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام". والظاهر أن هذا القول يقوله الشبلي يقصد ببيان علوم الحق، بأننا لو كشفنا منه ذرة، لن يقيم على الأرض ديار، ولن تبق الأشجار أن تعيش، ولن تجر البحار، ولن يكن الليل ظلماً أو النهار نوراً، فهل تحملها الأجساد أو تحدها الأبصار؟ فإنهم لا يطيقون هذا، إن الله حكيم عليم.⁷²

ومن أقواله الأخرى في الشطح، حكى عنه أنه يقول: "وددتُ أن لو كانت الدنيا لقمةً، والآخرة لقمةً، أ جعلها في فمي، حتى أترك هذا الخلق بلا واسطة". وفسر السراج هذا القول بأن المقصود منه لو كانت هذه الدنيا كلقمةٍ من الأرز سيجعلها في فم يهودي لأنها هوان عنده.⁷³ وقد روي في هوان الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك. روي عنه صلى

٧١. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩٨

٧٢. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٣٩٩

٧٣. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٤٠١

الله عليه ويلم أنه قال: لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة مما سقى
كافراً منها شربة من ماء.⁷⁴ وأيضاً روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:
الدنيا ملعونة ملعون ما فيها.⁷⁵

يقول السراج الطوسي وهو لا يزال يعتمد على قول الجنيد، بأن
الشبلي لا يزال في حال بداية النهاية ولم يخرج من حال البداية، واشتد وجده
في حال بدايته، ولكن لم يسمع السراج منه عبارة تدل على الكمال على أنه
وصل إلى النهاية.

ج. تفسير شطحات أبي الحسين النوري (المتوفى ٢٩٥ هـ)

اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، ولقد وضعه السلمي في
الترتيب الثاني بعد الجنيد في الطبقة الثانية من طبقاته الصوفية.⁷⁶ وأحد
من أقواله في الشطح يعني قوله: "أنا أعشق الله وهو يعشقني". وحكي هذا
القول الذي ينكره غلام الخليل ورفعته إلى أمير المؤمنين للتحكيم. فقال
النوري حتى يتضح هذا لدي أمير المؤمنين مستدلاً بقوله تعالى: "يحبُّهم
ويحبُّونهم"⁷⁷ وليس العشق بأكثر من المحبة، غير أن العاشق ممنوع، والمحبِّ

٧٤. صحيح: أخرجه الترمذي

٧٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه، البيهقي، والترمذي

٧٦. السلمي، طبقات الصوفية، ص. ١٦٤، هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري المتوفى ٢٩٥ هـ، ولد ونشأ في بغداد، بغوي الأصل، صحب

سري السقطي وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد وحبه الله، وكان كبير الشأن حسن المعاملة واللسان. أبي القاسم عبد الكريم

ابن هوزان القشيريّ النيسابوري، الرسالة القشيرية، ص. ٤٣٧

٧٧. سورة المائدة: ٥٤

يتمتع بجهه".⁷⁸ فقبل الخليفة موفق هذا الكلام قبولا حسنا وبكى من رقة كلامه.

و في وقت آخر، رفعه مرة أخرى إلى أمير المؤمنين وشهدوا عليه بأنه قال: "كنتُ البارحة في بيتي مع الله"، فسُئِلَ عن ذلك فأجاب بأن هذا القول أُلتي حقيقة منه، وقال: "وأنا الساعة مع الله، وإذا كنتُ في البيت فأنا مع الله، وإذا كنتُ في برية فأنا مع الله ومن كان في الدنيا مع الله فهو في الآخرة مع الله".⁷⁹ ويقصد بقوله ذلك أنه يشير إلى قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمْ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ^ط وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ،⁸⁰ فاتضح هذا لديهم.

وفي حكاية أخرى أنه حينما سمع الأذان فقال: "طعنة وشم الموت"، وحينما سمع نباح الكلب فقال: "لبيك وسعديك". ولقد أجاب النوري نفسه بأن المقصود منه يعني في غفلة المؤذن، أنه ذكر الله بالرياء متلوث بالمعاصي ويطلب الأجرة، لأنه لولا الأجرة فلم يؤذن. وأما الغرض من قوله عندما سمع نباح الكلب، إنما كل شيء يذكرون الله بلا رياء ولا سمعة، ولا

٧٨. عاش أبو الحسين النوري في زمن موفق، وكان ينكر عليه غلام الخليل فرجع إلي موفق، وهو يومئذ أمير المؤمنين. فقال له غلام: "أن ببغداد رجلا من الزنادقة دمه حلال، فإن قتله أمير المؤمنين، فدمه في عنقي" فبعث الخليفة في طلبه، فحمل إليه، فشهد عليه غلام

الخليل هذا القول. السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوف، ص. ٤٠٦.

٧٩. السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوف، ص. ٤٠٧.

٨٠. سورة القاف: ١٦.

يطلبون الأجرة.⁸¹ كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.⁸² لذا قال النوري ما قال ذلك.

ومن هذه الحكاة يرى الباحث بأن المنكرين لقول النوري إنما لقلة علمهم في علم الشريعة، لأن أقواله إنما مستدلا بالقرآن وهو شيخ الصوفية في وقته وحسن العبادة مذكورا بكثرة الاجتهاد، كما قال السراج الطوسي أنه من أهل الإشارات اللطيفة وله كلام مشكل وأشعار كثيرة وكان يغرف من بحر كبير. ويقول عنه أيضا أبو أحمد المغازلي، أنه لم ير أحدا أعبد من الحسين النوري بل أعبد من الجنيد، وقيل أيضا أنه صام عشرين سنة لا يعرف به أحد.⁸³

ومن هذه الحكايات عن النوري، بأن هذه الأقوال تدلّ على كلام الواجد الذي يفيض بقوته وأراد أن يظهر حال حبه العلية نحو الخالق، فكأن ما رآه هو الله وكل ما ذكره هو ذكر الله، كما قال القشيري أن المحبة هي حال شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه.⁸⁴

كما قال تعالى: يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.⁸⁵

٨١. السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ص. ٤٠٧، والإمام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تلبس إبليس، بتحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦)، ص. ٣٢٤

٨٢. سورة الإسراء: ٤٤

٨٣. دكتور محمد جلال شرف، دراسات في التصوف...، ص. ٢٤٥-٢٤٦

٨٤. أبي القاسم عبد الكريم ابن هوزان القشيريّ النيسابوري، الرسالة القشيرية، ص. ٣١٨

٨٥. سورة المائدة: ٥٤

د. تفسير شطحات أبي حمزة الصوفي (المتوفى ٢٨٩ هـ)

قيل على أنه إذا كان سمع صوتا مثل هبوب الرياح، وخريف الماء، وصياح الطيور، وثغاء الغنم، فكان يصيح ويقول: "لَبَّيْكَ"، حتى اطلق عليه على أنه حلولي. هذا القول كسطح النوري السابق حينما سمع نباح الكلب عبّر حبه ووجده، لكن القضية متفرقة.

على أن هذا القول من كلام الواجد، لأن قلبه حاضر بين يدي الله ويكون دائم الذكر لله فيرى الأشياء كلها بالله ولله ومن الله وإلى الله، فإذا سمعها فكأنه سمعها من الله، فلذلك قال "لَبَّيْكَ". هذا ما بين السراج الطوسي. وقد شبّه دكتور محمد جلال شريف حبّهما ووجدهما كحبّ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي الأول إلى تهمة الكفر والزندقة، لأنه شطح وعبّر وجده وحبه بمثل هذه الأقوال.⁸⁶

وحكي أن رجلا من أهل خراسان الذي دخل على أبي حمزة وسمع قوله عن مسألة في الآن، حتى يتبين لدي هذا الخراساني بأن ما قال أبي حمزة عن مسألة الأمن إنما من أعظم النعم، فيجوز له أن يتحدث بما أنعم الله عليه، فقد قال الله تعالى: **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**.⁸⁷

ه. تفسير شطحات محمد بن موسى الفرغاني الواسطي (المتوفى ٣٣١ هـ)

وذكر عن الواسطي⁸⁸ أنه قال: "من ذكر افتري، ومن صبر اجتري، ومن شكر انبرى". في كلامه فرصة للمتعنن بالظعن والإنكار لأن ظاهره

٨٦. دكتور محمد جلال شريف، دراسات في التصوف...، ص. ٢٥٨

٨٧. سورة الضحى: ١١

٨٨. هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي المتوفى ٣٣١ هـ، خراساني الأصل من فرغانة، صحب الجنييد والنوري، وكان عالما كبيرا بالأصول وعلوم الظاهر. وهو من علماء مشايخ القوم لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثل ما تكلم هو. الرسالة القشيرية...، ص. ٤٣٧، أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص. ٣٠٢

مستشع. وإنما السراج وجد ومقصده مقصدا صحيحا، وموجودة في الأصول ونادرا في الفصول. وفسر السراج قوله "من ذكر افتري" يحتمل على ثلاثة أوجه: ⁸⁹

الأول: يحتمل أن من ظن أنه قد ذكر الله باستحقاق ذكره فقد افتري، وإن كان ذاكرا لله. والثاني: يحتمل أن يقول: من ذكر الله بلسانه ولم يذكره بقلبه فكأنه قد افتري، لأن الافتراء هو الكذب، والكذب هو النفاق وهو أن تقول بلسانك بخلاف ما يكون في قلبك، فإذا قلت: الله أكبر فقد ذكرت الله بلسانك، فإن كان قلبك شيع أكبر وأعظم من الله، فكان ذكرك الله افتراء على الله، فهذا معناه والله أعلم. وأما الوجه الثالث: يحتمل أنه أراد بذلك: أن من ظن أنه قد ذكر الله، وهو ذاكر الله بالحقيقة، فقد افتري حتى يعلم أن ذكر الله له قبل ذكره لله، قال الله تعالى: **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**

90

أما قوله "من صبر اجترى": على أن المصائب التي اعطيت لنا لا يطيقها أحد، فمن يقول بأنه صبر في مصائبه فليس له نسبة في صبره، لأن الله هو الذي يقرر على صبرنا، ومن ظن أنه صبر أو يقدر أن يصبر على ذرة من مصائبه فقد اجترى. لقوله تعالى: **وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ**. ⁹¹ كما قال أبو محمد أحمد الجريري بأن الصبر هو أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيها. ⁹²

٨٩. السراج الطوسي، للمع في تاريخ التصوفين، ص. ٤١٩-٤١٧

٩٠. سورة العنكبوت: ٤٥

٩١. سورة النحل: ١٢٧

٩٢. أبي القاسم عبد الكريم ابن هوزان القشيريّ النيسابوري، الرسالة القشيرية...، ص. ١٨٥

وأما قوله: "ومن شكر انبرى". ومن خطر بباله أنه شكر ولو كان قليلا من نعمه، فقد انبرى، يعني قد انفصل من درحة المتوحهين. لأن الخلق إذا شكر فاعتبر بأنه قد انقطع من جميع أشغاله بشكره. والحقيقة، إنما الأشغال لا تنفصل ولا تنقطع بالشكر، لأن الشكر نعمة، والشكر على الشكر أيضا نعمة، فلا ينقطع ذلك أبدا.

الاختتام

ومن بيان السراج الطوسي في تفسير الشطحات الصوفية فيما سبق، نستخلص موقف السراج الطوسي من شطحات الصوفية التي أوردتها السراج في اللمع، كان السراج يستفيد كثيرا من أقوال الجنيد الذي كان لا يخالف طبيعة منهجه في التصوف، ويتضح بأن السراج الطوسي يتأثر ويقتبس من الجنيد.

ونبه السراج لسامعيها بالسؤال إلى أهلها من يعلم علمها و من كان متبحراً في علمها و بترك الانكار عنها ليكون سامعوها سالمين ناجين، وهالكين لمن ينكر عنها دون أن يسأل إلى من يعلم ومتبحراً بعلمها. لأنه لا يستطيع أحد أن يفهم هذه الأقوال وهو ليس من أهلها، فلا يقدر على فهم طبيعة العلاقة بين الله والإنسان إلا بعد السؤال إلى أهلها. لأنه روي في الحديث: "إذا وسد الأمر إلى غير أهلها فانتظر الصعب"، فمعنى الصعب هنا يترجم بالهلكة أو الفساد.

و أيضا أن الشاطحين لم يعبر عبارة تظهر إلى أقصى التجربة، فالشطح مظهر يدل إلى بداية الحال لا النهاية ولا الكمال، في المعنى أن بدايته بداية

النهاية والكمال. ويمكن بعض الأقوال الشطحية تحتمل أن يكون له مقدمات التي لم يسمعها السامع. وبعد أن يعرض الباحث تفسيراته نحو الأقوال الشطحية للصوفية التي وردت في اللمع، فيظهر للباحث موقفه موقف المدافع لوجود استعراض ردوده نحو المنكرين و تفسيراته مستدلا بالآيات القرآنية والأحاديث في تفسيره عن الشطحات.

المصادر

- القرآن الكريم
ابراهيم، الدكتور مجدي محمد. التصوف السني، حال الفناء بين الجنيد والغزالي،
(القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002)
- ابن تيمية، عبد الحلیم. الصوفية والفقراء، قدم الدكتور محمد جميل غازي، (دار
المدني، دون السنة)
- ابن عربي، محيي الدين. الفتوحات المكية، قدمه نواف الجراح، المجلد الرابع،
(بيروت: دار صادر، 2007)
- بدوي، الدكتور عبد الرحمن. شطحات الصوفية، (الكويت: وكالة المطبوعات،
الطبعة الثالثة، 1978)
- التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي. مدخل إلي التصوف الإسلامي، (القاهرة: دار
الثقافة للطباعة والنشر، 1979)
- الجرجاني، علي بن محمد. كتاب التعريفات، (مصر: المطبعة الحيرية، 1306)

حجاج، محمد فوقى. شخصيات صوفية الجزء الثانى، (القاهرة: دار الهدى للطباعة، ١٩٨٤)

الحفنى، دكتور عبد المنعم. الموسوعة الصوفية، (القاهرة: مكتبة مدبولى، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦)

حقى، عدنان. الصوفية والتصوف، (دمشق: الطبعة الثانية، ١٩٩٢)
حلوى محمد فودة و عبد الرحمن صالح عبد الله، المرشد فى كتابة الأبحاث، (عمان: دار الفكر، ١٩٩٢)

ذوقان عبيدات، عبد الرحمن عدس و كايد عبد الحق. البحث العلمى مفهومه وأدواته وأساليبه، (عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨)

الرومى، صهيب. التصوف الإسلامى، (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)
زرکشى، أمل فتح الله. نظرية الفناء عند أبى يزيد البسطامى، (فونوروكو: مطبعة دار السلام، ٢٠٠٠)

السلمى، أبو عبد الرحمن. طبقات الصوفية، بتحقيق نور الدين شريبة، (سوريا: دار الكتاب النفيس، ١٩٨٦)

شرف، دكتور محمد جلال. دراسات فى التصوف الإسلامى شخصيات ومذاهب، (بيروت: دار الفكر الجامعى، ١٩٨٣)

السراج الطوسى، أبو نصر. اللمع فى تاريخ التصوف الإسلامى، بتحقيق عماد زكى البارودى، (القاهرة: المكتبة التوفيقية، دون السنة)

_____ . اللمع، حققه وقدمه الدكتور عبد الحلیم محمود، (القاهرة: دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٦٠)

ظاظا، زهير. الإمام الجنيد والتصوف في القرن الثالث الهجري، (دمشق: دار
الخير، الطبعة الأولى، ١٩٩٤)
عباس، قاسم محمد. أبو يزيد البسطامي المجموعة الصوفية الكاملة ويديها
كتاب تأويل الشطح، (دمشق: دار المدى، ٢٠٠٤)
الغزالي، أبو حامد بن محمد. روضة الطالبين و عمدة السالكين في مجموعة
رسائل الإمام الغزالي، (لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦)
القشيري، أبي القاسم عبد الكريم ابن هوزان النيسابوري. الرسالة القشيرية في
علم التصوف تحقيق معروف مصطفى زريق، (بيروت: المكتبة
العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠١)
قنديل، دكتورة إسعاد عبد الهادي. كشف المحجوب للهجويري دراسته
وترجمته، (مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٤)
الكلاباذي، أبو بكر محمد. التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق محمود أمين
النواوي، (مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٢٩، الطبعة الأولى)
الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان. كشف المحجوب، تحقيق دكتور ابراهيم
الدسوقي شتا، (القاهرة: دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع،
١٩٧٤)

Arberry, A.J, *Sufism an Account of the Mystics of Islam*, (New York:
Harper Torchbooks, 1970)
Ernst, Carl W, *Word of Ecstasy in Sufism*, (Malaysia: S. Abdul Majid &
Co,1994)
Schimmel, Annemarie, *Mystical Dimensions of Islam*, (New Delhi: Yoda
Press, 1975)